الفصل الأول :

مفهوم التناص ونشأته

المعنى المعجمي

ورد في (لسان العرب)

نص :

النَّصُّ: رفْعُك الشيء. نَصَّ الحديث يَنُصُّه نصّاً: رفَعَه.

وكل ما أُظْهِرَ، فقد نُصَّ.

وقال عمرو بن دينار: ما رأيت رجلاً أَنصَّ للحديث من الزُّهْري أَي أَرْفَعَ له وأَسْنَدَ. يقال: نَصَّ الحديث إِلى فلان أَي رفَعَه، وكذلك نصَصْتُه إِليه.

ونَصَّت الظبيةُ جِيدَها: رفَعَتْه.

وكل شيء أَظْهرْته، فقد نَصَصْته.

والمِنَصّة الثياب المُرَفّعة والفرُشُ الموَطَّأَة.

ونصَّ المتاعَ نصّاً: جعلَ بعضه على بعض.

وأَصل النَّصّ أَقصى الشيء وغايتُه، ثم سمي به ضربٌ من السير سريع

ونصُّ كلِّ شيءٍ: منتهاه.

قيل: نصَصْتُ الرجلَ إِذا استقصيت مسأَلته عن الشيء حتى تستخرج كل ما عنده،

ويقال: نَصْنَصْت الشيءَ حركته.

ونَصَّ الشيءَ: حركه.

وورد في (الصّحّاح في اللغة)

قولهم: نَصَصْتَ ناقتي، قال الأصمعيُّ: النَّصُّ السيرُ الشديدُ حتَّى يستخرج أقصى ما عندها. قال: ولهذا قيل نَصَصْتُ الشيءَ: رفعته.

ومنه مِنَصَّةُ العروسِ.

ونَصَصْتُ الحديث إلى فلان، أي رفعته إليه.

وسيرٌ نَصٌّ ونَصيصٌ.

ونَصَصْتُ الرجلَ، إذا استَقْصَيْتَ مسألتَه عن الشيء حتَّى تستخرج ما عنده.

ونَصُّ كلِّ شيء: منتهاه.

نص) وفق ما مر تعني رفع الشيء، أي أخذه ، أي تحريكه ، أي جعله بعضه على بعض ، وكل هذه المعاني تقرب منا مفهوم التناص اللغوي وأن معناه دخول النصوص في بعضها .

وهذا المصطلح ليس جديدا على ثقافتنا النقدية ، لأن له جذورا في كتب تراثنا النقدي إذ ورد تحت مسميات أخرى كالاقتباس ، والأخذ ، والتضمين ، وما يدخل في إطار التداخل والتشابك بين النصين النص الجديد والنص القديم ، دون أن نتخلى عن القديم تماما .

والكاتب أو الشاعر مع كثرة ما يقرأ يختزن في ذاكرته ما يعي من معارف ومعلومات ، تظل عالقة حاضرة في ذهنه ، حتى إذا هم

بالكتابة ، أو البدء في عمل جديد يستدعي ما وقر في نفسه وعقله من هذه المعلومات ، فيستعين بها ويتأثر بها : بفكرة ، بمعنى ، بتركيب معين ، بالمحتوى بوجه عام ، ويتم ذلك بقصد منه ، أو بدون قصد ، ويضمنه ما شرع فيه من عمل أدبي جديد ،وبصورة أوضح فإنه يتناص مع مخزون ذاكرته ومحصلة ما استوعب بوسيلة من الوسائل الآتية :

١- أن يعيد الأديب أو الشاعر قول من سبقوه بصياغته هو، وهو عندئذ يأخذ محتوى او فكرة النصوص الأخرى .

٢- أن يقوم بتعديل في كتابات سابقة حول موضوعه الذي يكتب فيه بتقديم عبارات ، أو تأخير بعضها ،أو تغيير أساليب معينة ، أو حذف أجزاء من النص واستبدالها بأخرى .

٣- أن يقتبس من عدة موضوعات عبارات ذات صلة بنصه الذي يكتب فيه ، مع الإشارة إلى موضع الاقتباس وصاحب النص المقتبس منه .

٤- أن يستشهد لموضوعه بكتابات أخرى يدعم بها نصه الجديد ، مع الإشارة إلى مصدر الاستشهاد وصاحب النص المستشهد به .

٥- أن يسرق نصا أو موضوعا ما وينسبه لنفسه . (وفي هذه الحالة يكون معتديا على حقوق الآخرين ، ويعرض نفسه للمساءلة القانونية) .

٦- أن يأتي الأديب أو المبدع بالنص الموازي ، وهو كما أشار إلى ذلك د. عبد الفتاح الحجمري في كتابه " عتبات النص " الصادر في الدار البيضاء، العام ١٩٩٦ بأنه (عبارة عن ملحقات نصية وعتبات نطؤها قبل ولوج أي فضاء داخلي، كالعتبة بالنسبة إلى الباب، أو كما يقول المثل المغربي: أخبار الدار على باب الدار، أو كما قال جنيت نفسه في شكل حكمة : احذروا العتبات !!) .

والتناص وإن كان وافدا إلينا من الغرب فبدا لنا شيئا جديدا على الساحة الأدبية إلا أنه عولج في مؤلفات السابقين ، فعرضه ابن رشيق القيرواني ، وابن الأثير، والجرجاني ، وابن طباطبا العلوي وكثير من النقاد العرب وشيوخ اللغة القدامى تحت مسمى السرقة ، كما تناوله في عصرنا الحديث كثير من النقاد فعرض له الدكتور بدوي طبانة في كتابه السرقات الأدبية وأوجزه في الأنواع الآتية :

١- الاصطراف : وهو أن يعجب الشاعر ببيت من الشعر فيصرفه إلى نفسه.

٢- الانتحال : أن يدعي الشاعر شعر غيره وينسبه إلى نفسه .

٣- الادعـــاء : أن يدعى غير الشاعر لنفسه شعر غيره ، والفرق بين الادعاء والانتحال ، أن الانتحال أخذ الشاعر من الشاعر، أما الادعاء فهو سرقة غير الشاعر من الشاعر.

٤- الإغارة : أن يصنع الشاعر بيتا ويخترع معنى مليحا فيتناوله من هو أعظم منه ذكرا ، وأبعد صوتا فيروي له دون قائله .

٥- الغصب : أن ينسب الشاعر شعر غيره لنفسه عنوة رغم قيام الحجة، مثل ما صنع الفرزدق بالشمردل اليربوعي ، وقد سمعه ينشد في محفل من المحافل :

فما بين من لم يعط سمعا وطاعة وبين تميم غيرُ حز الحلاقم

فقال الفرزدق : والله لتدعنّه أولتدعن عرضك ! فقال : خذه لا بارك الله لك فيه .

٦ - المرافدة : أن يعين الشاعر صاحبه بالأبيات يهبها له .

٧- الاهتدام : وهو أن يأخذ الشاعر البيت أو البيتين وهو بمعنى السرقة

٨- النظر والملاحظة : أن يتساوى المعنيان دون اللفظ مع خفاء الأخذ.

٩- الاختلاس : وهو تحويل المعنى من غرض إلى غرض ، كتحويل المديح مثلا إلى الوصف .

١٠- الموازنة : وهو يقتصر على أخذ أبنية الكلمات.

١١- المواردة : أن يتفق الشاعران دون أن يسمع أحدهما شعر الآخر ، بشرط ان يكونا في عصر واحد .

١٢-الالتقاط والتلفيق : وهو أن يؤلف البيت من أبيات قد ركب بعضها من بعض ، وبعضهم يسميه الاجتذاب والتركيب .

١٣-كشف المعنى : وهو إظهار المعنى الذي تحدث فيه الأول من طرف الأخير

١٤- المجدود : وهو أن يشتهر المعنى ويظل جاريا على الألسنة في جدة متميزة .

وأول من ذم السرقة من الشعراء طرفة بن العبد في قوله :

ولا أغير على الأشعار أسرقها عنها غَنيتُ وشر الناس من سرقا[٣]

يقول الدكتور بدوي طبانة :" والرفقاء منهم يتلطفون في تلك الألقاب تحرزا من الخطأ وإحسانا للظن فيسمونه : اقتباسا ، وأخذا ، وتضمينا ، واستشهادا ، وعقدا ، وحلا ، وتلميحا ، وغير ذلك من الألفاظ المهذبة [٤].

وفي ذلك يرى القاضي الجرجاني : " أن السرق داء قديم ، وعيب عتيق ، وما زال الشاعر يستعين بخاطر الآخر ، ويستمد من قريحته ، ويعتمد على معناه ولفظه ، وكان أكثره ظاهرا كالتوارد ، وإن تجاوز ذلك قليلا في الغموض لم يكن فيه غير اختلاف الألفاظ "(٥)

" ولم يسلم أكابر الشعراء من رميهم بالسرقة ، وانتهاب أفكار غيرهم ، وهي

أشد وأقسى ما يتهم به الفحول الموهوبون ، وكثيرا ما يكون هذا الرمي من أثر التهافت والحسد "

وقديما ادعى جرير على الفرزدق السرق فقال :

سيعلم من يكون أبوه قينا ومن عُرفت قصائده اجتلابا

وادعى الفرزدق مثل ذلك على جرير فقال :

إن استراقك يا جرير قصائدي مثل ادعاك سوى أبيك تنقل

ومن السرقات : قال بشار بن برد :

من راقب الناس لم يظفر بحاجته وفاز بالطيبات الفاتك اللهج

أخذه دعبل الخزاعي فقال :

من راقب الناس مات غما وفاز باللذة الجسور (٦)

ويرى أبو هلال العسكري أنه لا سرقة في المعاني والأفكار، وأن السرقة مقصورة على أخذ ألفاظ السابق ونقلها.

" وقد أطبق المتقدمون والمتأخرون على تداول المعاني بينهم، فليس على أحد عيب إلا إذا أخذه بلفظه كله، أو أخذه فأفسده، وقصر فيه عمن تقدمه، وربما أخذ الشاعر القول المشهور، ولم يبال كما فعل النابغة الذبياني، فإنه أخذ قول وهب بن الحارث بن زهرة:

تبدو كواكبه والشمس طالعة ... تجري على الكأس منه الصاب والوقر

وقال النابغة:

تبدو كواكبه والشمس طالعة ... لا النور نور ولا الإظلام إظلام[٧]

وفي الإطار نفسه قال أبو تمام:

يعيش المرء ما استحيا بخير ... ويبقى العود ما بقي اللحاء

فلا والله ما في العيش خير ... ولا الدنيا إذا ذهب الحياء

وقد قال بشار بن برد في المعنى نفسه ومن نفس البحر الشعري:

يعيش المرء ما استحيا بخير ... ويبقى العود ما بقي اللحاء

إذا لم تخش عاقبة الليالي ... ولم تستحي فافعل ما تشاء

واضح أن التشابه ماثل في المعنى وفي الألفاظ، حتى في البحر الشعري، والسرقة فيه واضحة وضوح الشمس.

تعريف التناص :

(التناص) يعني حدوث تفاعل أو تشارك بين نصين يستفيد أحدهما من الأخر.

ويطلق عليه بعض الباحثين مسميات كثيرة منها :

العلاقة بين النصوص.

المتعالقات النصية.

التداخل النصي.

التفاعل النصي.

وبمعنى أوضح : هو تداخل نصوص أدبية مختارة قديمة أو حديثة شعرا أو نثرا مع نص القصيدة الأصلي ، بحيث تكون متسقة وفي إطار الفكرة التي يطرحها الشاعر.

نشأة مصطلح التناص :

كان أول ظهور لمصطلح التناص عام ١٩٦٦ على يد (جوليا كريستيفا) ، إذ عرفت التناصب أنه (التفاعل النصي بعينه) وهي ترى أن النص (عبارة عن فسيفساء من الاقتباسات ، وهو نص تشرب وتحول لنصوص أخرى) أما (ليتش)فيرى أن النص ليس ذاتا مستقلة أو مادة موحدة ولكنه سلسلة من العلاقات مع نصوص أخرى ،

وتوالت دراسات الغربيين حول هذا المصطلح إلى أن جاء الفرنسي (جيرار جنت) فحدد أنواع التناص .

وكل هذه الأقوال والتعريفات تبرز لنا الحقائق التالية :

- النص الأدبي نتاج نصوص كثيرة تكمن في مخزون الشاعر بوعي أو بدون وعي .
- النص الأدبي يتداخل عادة مع نصوص أخرى بأي شكل من الأشكال ، بالألفاظ ، أو بالتراكيب ن أو بالصور ، أو بالفكرة .
- النص الأدبي يتعالق (أي : يدخل في علاقة مع نصوص أخرى) .
- النص الأدبي لا حدود له ، بمعنى أنك لا تستطيع أن تفصله أو تقيم حدودا بينه وبين النصوص الأخرى .

وإذا كان هو المفهوم والانطباع الحديث لدى الباحثين المعاصرين ، فلا يوجد اتفاق أو إجماع على مصطلح محدد ، فهناك من يحلو له أن يطلق عليه (التناص) ، ومنهم من يفضل مفهوم (التناصية) أو (تعالق النصوص) أو (تداخل النصوص) على خلاف ما يزال قائما بين الباحثين ونقاد الأدب .

وجدير بالذكر أن التناص يوجد عددا من التساؤلات :

- هل للنص الأدبي حدود يقف عندها ؟
- هل للنصوص علاقات ببعضها ؟

- ما طبيعة هذه العلاقات ؟ وما حدودها ؟

فهذا (ليتش) يرى أن النص ليس ذاتا مستقلة ، أو مادة موحدة ولكنه سلسلة من العلاقات مع نصوص أخرى .

ويرى (روبرت شولز) أن معنى التناص يختلف من ناقد إلى آخر.

ويفهم من ذلك كله أن التناص أخذ وتأثر متعمد وبوعي كامل من الشاعر أو المبدع أو بدون شعور منه .

ومعنى ذلك أن النص الشعري لا ينفصل عن غيره من النصوص الأخرى ، إنما هناك صلة تربطه بغيره ، وأن ما نراه من نصوص يرتبط بغيره بوسيلة أو بأخرى ،عن قصد من الشاعر أو دون قصد منه ، فما الذئب إلاَّ مجموعة خراف مهضومة ، وما الأعمال الأدبية إلا مجموعة أعمال هضمها الشاعر أو الأديب ، وعاشت في ذاكرته ، واختزنها في لا شعوره ومن ثم يخرجها بعد ذلك ويضفى عليها من أسلوبه ، ومن أقوال الإمام علي بن أبي طالب " لولا أن الكلام يعاد لنفد " وقديما قال الشاعر:

اقـــرأ تقـــل إن الكـــلا م مـــن الكـــلام يعـــاد

وقد فطن العرب إلى أخذ الشعراء من بعضهم : منهم من يأخذ فكرة ، ومنهم من يأخذ بيتا ، أو شطرا من بيت ، أو تركيبا معينا ، أو صورة ، وقد نسب إلى كعب بن زهير أنه أدرك ما شاع بين الشعراء من سرق وأخذ فقال :

ما أرانا نقول إلا معارا أو معادا من القول مكرورا

ومما يروى عن أبي نواس أنه ذهب إلى حماد الراوية ، وقال له : علمني الشعر ، فقال له : اصحبني ، حتى أخرجك ، فصحبه فترة من الزمان ، بعدها قال له حماد الراوية : اذهب ولا أرينك حتى تحفظ ألف أرجوزة من الشعر ، فإن حفظتها فارجع إليّ ، وبعد عام جاء إليه وقال: لقد حفظت يا سيدي ما طلبت ، فقال له : انساها إذن ، ولا أرينك إلا بعد فترة ، ولما عاد إليه بعد عدة أشهر قال له حماد : تخيل أني مت ، واكتب فيّ قصيدة رثاء ، وكتب أبو نواس قصيدة رثاء جيدة في أستاذه حماد ، فلما سمعها أعجب بها ، وقال له : الآن أصبحت شاعرا ، فقال له أبو نواس : مت يا سيدي ولك عندي قصيدة خير منها !!!!

وهذه الرواية تطلعنا على أن ما نقول إنما هو من مخزون خبراتنا في اللاشعور وما قمنا بتخزينه ، فقط نجتره ونضفي عليه من خبراتنا ، وما طلب حماد الراوية من أبي نواس حفظ هذا العدد من الأراجيز إلا

لثقته في أن ما نقول ما هو إلا معاد أو مكرور بطريقة ما ، كما أن هذه القصة تطلعنا على حقائق عدة أبرزها :

١- أن ما يكتبه الشاعر أو الأديب نتاج قراءات وثقافات مختزنة ساهم فيها نصوص أخرى خارج حدود النص الشعري أو النثري .

٢- أن ما يظنه الشاعر أو الأديب شيئا جديدا أمر غير دقيق ، فهو إما محاكاة عن طريق المخالفة أو المعارضة أو تأثر أو صدى لفكرة أو تركيب سبق أن كتب أو قيل من قبل ، ثم صدر عن الشاعر واعيا أو غير واع.

٣- تبرز آلية التناص واضحة ملموسة من خلال مفهوم الاستدعاء لمخزون معين من خبرات وثقافة الشاعر، أو تحويل لنص ما يتفق ورؤية الشاعر.

٤- الشاعر أو المبدع عملة ذات وجهين ، فهو يرفد غيره ويمده بما يكتب ويأخذ منهم قاصدا أو بدون قصد ، بوعي أو بدون وعي منه .

والشاعر أو الأديب في ظل ذلك كله لا يفكر بمعزل عن خبراته وقراءاته ولا يبدأ من نقطة الصفر، إنما يمر بالحالين : يأخذ ويعطي ، فما النص الأدبي إلا عدة نصوص مهضومة تفاعل معها الشاعر، وأضفى عليها من ذاته وخبراته ، وهذا هو الذي جعل القدماء يسمونه

بالسرقة أ وقوع الحافر على الحافر كما يقولون ، وفي هذا الصدد يقول الدكتور (خليل موسى) : " إن التناص تشكيل نصي جديد من نصوص سابقة أو معاصرة تشكيلا وظيفيا بحيث يغدو النص المتناص خلاصة لعدد من النصوص ، ويقوم التناص بعمليات إجرائية مختلفة كالاستدعاء القصدي أو غير القصدي والتغايري أو التوافقي أو الامتصاص الإسفنجي الموظف والتداخل ، والتحويل ، وهو أهم عمليات التناص والاندماج " .

حقيقة المصطلح

التّناصّ ، يرادفه (التفاعل النصّي)، و (المتعالقات النصّية) وكانت بداية ظهور (التّناصّ) على يد (جوليا كريستيفا). ثم احتضنته البنيوية الفرنسية، وما بعدها من اتجاهات سيميائية، وتفكيكية، في كتابات رولان بارت، وتودوروف، وغيرهم من رواد الحداثة النقدية، ويؤكد تودوروف في كتابه (الشعرية) أن الفضل في هذه الظاهرة التعبيرية يعود إلى الشكلانيين الروس، يقول شيكلوفسكي: "إن العمل الفني يُدرك في علاقته بالأعمال الأخرى، وبالاستناد إلى الترابطات التي نقيمها فيما بينها، وليس النصّ المعارض وحده الذي يبدع في توازٍ وتقابل مع نموذج معين، بل إن كل عمل فني يبدع على هذا النحو" ذلك أن المبدع ينشأ في عالم مليء بكلمات الآخرين وأساليبهم ، فيبحث في خضمها عن الكلمات التي يعبر بها عن تجربته ، وفكره ، لن يجد إلا كلمات قد صاغها غيره وسبق إليها. ولهذا فإن تودوروف يسمّي الخطاب الذي لا يستحضر شيئاً مما سبقه: (أحادي القيمة)، ويسمّي الخطاب الذي يعتمد في بنائه على هذا الاستحضار بشكل صريح (خطاب متعدد القيمة) .

ومعنى ذلك أن الأديب أو الشاعر عند تشكيل نصّ جديد يلجأ إلى (التّناصّ) من نصوص سابقة أو معاصرة فيأخذ المدد من فكرتها أو صورها أو تراكيبها ، بحيث يغدو النّص الجديد نتيجة وخلاصة لعدد من النصوص السابقة ، كان دور الأديب فيها إعادة صياغتها بشكل جديد، بحيث لم يبق من النصوص السابقة سوى مادتها في حين يختفي الأصل الذي لا يتوصل إليه ولا يدركه إلا ذوو الخبرة والمران.

ومعنى ذلك أيضا أن (التّناصّ) يقيم علاقة تفاعل بين نصوص سابقة، ونصّ حاضر. أو هو تعالق (دخول في علاقة) نصوص مع نصّ، حدث بكيفيات مختلفة .

والتناص نوعان :

١- **تناصّ داخلي :** يعتمد على (توالد) النصّ و (تناسله)، من خلال : العبارات المفتاحية ، أو الجمل المحورية والتأثر بها بطريقة مباشرة أو غير مباشرة من خلال :

- التضمين .
- الاقتباس .
- الاستشهاد .
- الاحتذاء .

- المعارضة .

أي أنه إعادة إنتاج سابق، في حدود من الحرية.

٢- **تناص خارجي** : يعتمد على حوار بين نصّ ونصوص أخرى متعددة المصادر والوظائف والمستويات ، يأخذ الشاعر فكرة ، أو عدة أفكار، أو مضامين معينة مما يقع تحت يديه من نصوص .

وقد أدى ظهور المصطلح إلى وجود اختلاف بين المترجمين العرب المعاصرين فيما بينهم حول تعريب مصطلح (التناصّ) Intertextulite ،فظهرت له المسميات التالية :

- أطلق عليه : تداخل النصوص
- وأطلق عليه : التناصية
- وأطلق عليه النصوصية
- وأطلق عليه التناص

وهذا المصطلح الأخير (التناصّ) هو الذي شاع في الحقل البلاغي وصار يطلق على كل نص فيه تضمين ، أو تلميح، أو إشارة، أو اقتباس...الخ .

والأمر الذي لا شك فيه أن النقاد العرب القدماء تنبهوا إلى ظاهرة (تداخل النصوص) أو (التفاعل النصّي)، وأشاروا إليه في مجالسهم، وفي ما روي عن الشعراء، وفي ما كان يطلق من أحكام نقدية، ولكن تحت مسميات بلاغية مثل: التضمين، والاستشهاد، والاقتباس ومن النقاد من أدخله في السرقات.